

## القِسْمُ الثَّانِي

### التعامل مع التمرد وعدم الامتثال

تختفي مظاهر التمرد، وعدم الامتثال، والعدوانية لدى طفلك بكل بساطة، وتوليّ دون رجعة، في بعض الأحيان، حين تنفذ إجراءات الوقاية الواردة في القسم الأول من الكتاب. يمكن لحظ الانسجام الناتج بوضوح في المنزل، بما يمنح الفرص العديدة للوالدين لمنع مشكلات الطفل السلوكية من الظهور مجدداً، عبر إطرائه، ومنحه التقدير، بصورة يومية.

تمنح إجراءات الوقاية والجدول الطفل، في العادة، شهراً من السلوك الحميد، ليعاود السلوك السلبي، المتمثل في التمرد وعدم الامتثال، الظهور بصورة مفاجئة غير متوقعة. يتمثل السبب في ذلك، وهو ما يحدث على الدوام بصورة تقريبية، في عودة النمط السابق من السلوك إلى تأكيد نفسه مجدداً، نتيجة رغبة الطفل في استعادة السيطرة. قد يسهم ذلك في زعزعة ثقتك، ويدفعك إلى التساؤل حول فاعلية الأثر الناتج عما اتبعته من أساليب الوقاية، والاعتقاد بإخفاقها، كغيرها مما لجأت إليه من وسائل، ومن ثمّ يمكن أن تنزع، بدافع من اليأس والإحباط الشديدين، إلى التخلي عما اتبعته حديثاً من إجراءات الوقاية. لا يجدر بك القيام بذلك، تحت أي من الظروف، بالنظر إلى ما تحقّقه من تقدم، فضلاً عن اتباع المسار الصحيح مع طفلك، مما يعني بلوغ المرحلة المقبلة من عملية المعالجة.

ستتعلم، في القسم الثاني، كيفية توجيه طفلك أثناء أي من مراحل الانتكاس تلك.



## كسر حلقة الإكراه

أشار جيرالد باترسون، أحد أوائل الباحثين/ العياديين في برامج التدريب السلوكية للوالدين، إلى وجود نمط مدمر للعلاقة بين الوالد والطفل، حين يتمرد الأخير بوضوح، داعياً ذلك النمط «حلقة الإكراه»<sup>(47)</sup>.

تبدأ حلقة الإكراه بالتشكل حين يوجه الوالد الأوامر للطفل، ليرفض الأخير تنفيذها، صارخاً، عوضاً عن الامتثال لوالده، مما يثير غضب الأخير، فيعمد إلى تكرار أوامره بقدر أكبر من الانفعال، ليقابله الطفل بمزيد من التحدي، فضلاً عن إمكانية ركله الحائط، أو رمي الأشياء، أو إطلاق الشتائم والتهديدات، مما يدفع بالوالد إلى التراجع عن أوامره في نهاية المطاف. يهدأ الطفل بالنتيجة، مما يشعر الوالد بقدر كبير من الارتياح، بينما تتملك السعادة الطفل، على حد سواء، لرفضه الإذعان إلى أوامر والده.

### فكرة رئيسية:

تتشكل حلقة الإكراه، في العادة، حين يتمرد الأطفال بوضوح على والديهم.

يمكن أن يتضح أثر حلقة الإكراه، في أي من العوائل، على النحو الآتي:

## جيمي ينال مراده

نادى الوالد جيمي، بينما كان يتصفح الصحيفة في المساء، قائلاً: «حان موعد الذهاب إلى السرير يا ولدي. أغلق التلفاز، وارقد ثياب النوم». تجاهل الطفل مطلب والده، ليعمد الأخير إلى تكراره بحدة أكبر، بعد مدة من الزمن، قائلاً: «قد حان موعد النوم، هيا تحرك الآن!».

صرخ جيمي بقوة، من غرفة المعيشة، قائلاً: «لا، أود متابعة فيلم «المبيد» حتى نهايته!».

عقب السيد بيرون بانفعال، بينما ألقى بالجريدة، واتجه إلى غرفة المعيشة، قائلاً: «قلت لك الآن، وأعني ذلك تماماً». ركض الطفل إلى المطبخ، حيث يوجد جهاز تلفاز آخر. أدرك السيد بيرون حتمية الصدام مع جيمي، إن قام بملاحظته وإرغامه على الذهاب إلى السرير، رغباً عن القيام بذلك، بالنظر إلى ما تعرض له من متاعب في العمل في ذلك اليوم، ورغبته في الاسترخاء، ولو مدة قصيرة، مما دفعه إلى مطالبة زوجه بالتدخل لحل المشكلة.

ردت زوجه قائلة إنها ستفعل، ما إن تنهي غسل الملابس، ليهدف كلامها إلى تهدئة زوجها لا أكثر. نظرت السيدة بيرون إلى ساعتها، فيما بعد، لتدرك أن الفيلم ينتهي بحلول انتهائها من غسيل الملابس، مما يعني توجه جيمي إلى السرير دون إثارة المتاعب.

لا يتسم المشهد السابق بالأهمية، كما تبدو عليه الحال. ما الذي يعنيه تأخر الطفل نصف ساعة عن موعد النوم، هل يمثل خطباً جلاً؟ لا تتمحور المشكلة حول ذلك، في الحقيقة؛ بل في كيفية حدوثه، حيث عمد الطفل إلى تأخير موعد نومه عبر إظهار التحدي لوالده. اضطر الأخير إلى سحب مطلبه (أو التراجع) لعلمه أن الإصرار على إذعان الطفل سيعني إصابته بنوبة شديدة من الغضب، ومن ثم إفساد أمسية العائلة. لا يبشر ذلك بالخير، في الحقيقة، حيث يؤكد جيمي، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه يفعل ما يشاء في «منزله»، حين يشاء، فضلاً عن امتلاكه السيطرة، واستعداده للقيام بكل ما يكفل الحفاظ عليها.

## منشأ حلقة الإكراه:

لا يدرك أي من الوالدين، على الإطلاق، كيفية تشكل حلقة الإكراه، حيث يحدث ذلك أثناء ما لا يتسم بالأهمية من المواقف، التي يعجز الوالد عن تذكرها، كما يحدث، على سبيل المثال، حين يدق الطفل الأوتاد الخشبية بقوة بوساطة مطرقة الخشبية، لتطالبه الأم بالتوقف عن ذلك، ليستجيب لمطلبها دقيقة واحدة، منتظرا انشغالها بأي من الأمور، قبل معاودة الكرة. يدرك الطفل حين يعاود إثارة الضجيج، ويلتزم والده بالصمت، أنه نجا بفضلته، مما يؤذن بتشكيل حلقة الإكراه.

## فكرة رئيسية:

تبدأ حلقة الإكراه بالتشكل حين يطالب الوالد الطفل، ويرفض الأخير الاستجابة، ويتراجع الوالد عن مطلبه في نهاية المطاف.

تعهد الأم، بعد بضعة أيام، إلى مطالبة طفلها بالتوقف عن دق الأوتاد ثانية، فيستذكر الطفل ما حدث في المرة السابقة، ليستجيب لمطلب أمه دقيقة واحدة، منتظرا انشغالها بأي من الأمور، قبل أن يعاود دق الأوتاد، ليفاجأ بحدوث تغيير في تلك المرة. تهرع الأم إلى الغرفة، حين يعاود الطفل دق الأوتاد، لتتنزع المطرقة بقوة من يده، وترميها في صندوق الألعاب.

يثير ذلك غضب الطفل إلى أبعد الحدود، ليعمد، ما إن تغادر أمه الغرفة، إلى أخذ المطرقة من الصندوق، ودق الأوتاد ثانية، فتستمع الأم إلى الضجيج المنبعث عن ذلك، ليرن الهاتف في حينه بصورة مفاجئة. تسمح الأم لطفلها بمتابعة دق الأوتاد، نتيجة انشغالها بالرد على الهاتف، مما يسهم في تدعيم حلقة الإكراه.

تتكرر الآلية السابقة، طوال الشهر المقبل، بما لا يشمل دق الأوتاد الخشبية بالضرورة، لتسأل الأم طفلها القيام بأمر أخرى، ويرفض الأخير، بصورة متزايدة، الاستجابة لمطالبها، ومن ثم تأخذ حلقة الإكراه في التماسك كلما تجاهلت الأم عدم امتثال طفلها. يمكن أن يلهو الطفل مع قريبه في غرفته، ذات يوم، بما يثير الضجيج، لتطالبها الأم، أثناء وجودها في غرفة المعيشة، بمواصلة اللعب في الخارج.

يرفض الطفل الاستجابة، بالنتيجة، لتنهض الأم عن مقعدها، وتتوجه إلى غرفته، عاقدة العزم على تلقيه ما يكفل الاستجابة لمطالبها من الدروس. تتراجع الأم في اللحظة الأخيرة، مع ذلك، مخافة إثارة الفصائح أمام الزائرين من الأقرباء، لتكتفي بإغلاق باب غرفة الطفل، وتعود إلى غرفة المعيشة، مما يجعل حلقة الإكراه، في تلك اللحظة، عصية على الكسر.

#### فكرة رئيسية:

تتماسك حلقة الإكراه إلى أبعد الحدود، بحلول الوقت الذي يدرك فيه الوالدان تمرد الطفل.

تمثل حلقة الإكراه، في صيغتها النهائية، نضالاً حقيقياً حول السيطرة، حيث يأمر الوالد الطفل مهدداً، ليرفض الأخير الاستجابة بكثير من التحدي. ينتصر الأطفال المتمردون على الدوام، بصورة تقريبية، في ذلك الصراع، لقدرتهم على بذل الغالي والنفيس في سبيله. ينسحب الآباء من الصراع حول السيطرة، بالمقابل، حين تصبح كلفة الانتصار أكبر مما يقدرّون على دفعه.

#### ثمن السكينة

عقبت السيدة وونغ، حين تم توضيح مفهوم حلقة الإكراه في جلسة لتدريب الوالدين، قائلة إنها تدركه على وجه التمام، بالنظر إلى انطباقه على العلاقة مع طفلها. أردفت السيدة قائلة: «بلغت الساعة التاسعة والنصف مساءً، في ليلة البارحة، بما يتجاوز موعد نوم كليفورد إلى حد بعيد. سمعته من المطبخ، بينما كان يضع القرص المدمج في جهاز العرض، لأصرخ بأعلى صوتي قائلة: «أغلق الجهاز الآن، واذهب إلى الفراش!».

«توجهت إلى غرفة المعيشة، بعد عشر دقائق، لأجده يتابع فيلماً. عمدت إلى التقاط إحدى المجلات، وضربه على مؤخرته بواسطة، قبل أن أخاطبه قائلة: «طالبتك بإغلاق جهاز العرض، والذهاب إلى الفراش، وقد عنيت ذلك».

«صرخ الطفل وكأنتي ضربته بعصى غليظة، ليعمد إلى خرمشة ساقى، وإسالة الدماء مني. عمدت إلى ضربه بقوة بالمجلة على رأسه، ليعلي من صراخه، ويحاول القيام بعضي».

«تركت كليفورد وشأنه، بالنتيجة. أدركت أنني كنت أستسلم له، وقد كنت أعلم ما يمثله ذلك من خطأ كبير، ولكنني كنت متعبة كثيراً في حينه، من جراء يوم طويل شاق من العمل، وكنت بحاجة ماسة إلى القليل من السكينة».

حصلت السيدة وونغ على ما تحتاجه من سكينة. لم يكن ذلك يكلف الكثير، في بادئ الأمر، ولكن ثمنه بات باهظاً الآن، وسيصبح أكثر ارتفاعاً في الغد. يجد العديد من الآباء الكثير من الصعوبة في كسر حلقة الإكراه، على الرغم من إدراك حقيقتها، وما تلحقه من أذى بعوائلهم، ولكنها يجب أن تكسر في نهاية المطاف.

### الطريقة التقليدية لكسر حلقة الإكراه:

يمكن أن تدعى تلك الطريقة لكسر حلقة الإكراه بالهجوم المباشر. يتسم الهجوم المباشر بالقوة والشدة لمواجهة تمرد الطفل، ويضعك في اختبار عسير للإرادات مع طفلك، بما يمثل صراعاً حقيقياً حول السيطرة.

#### فكرة رئيسية:

يمثل الهجوم المباشر لكسر حلقة الإكراه صراعاً على السيطرة بين الوالد والطفل.

يدافع بعض علماء السلوك عن استخدام الهجوم المباشر لكسر حلقة الإكراه<sup>(48,49)</sup>. لا يفتقر الهجوم المباشر، من الناحية النظرية على أقل تقدير، إلى البساطة والوضوح، حيث يدور بمجمله حول الثواب والعقاب. يتم إخبار الوالدين بضرورة استجابة أطفالهم إلى ما يعطون من أوامر، فضلاً عن عدم التراجع عنها، وإن تملك أطفالهم الكثير من الغضب. يعجز الآباء عن سحب مطالبهم لما يمثله ذلك من مكافأة لأطفالهم على ما يظهرونه من غضب. لذلك يتم إخبار الوالدين بضرورة معاقبة الطفل حتى يمتثل لأوامرهم، عوضاً عن التراجع عنها.

تتسم أدوات الهجوم المباشر بالكثير من الإغراء لبساطتها. لا يجدر بالوالدين، في ذلك السياق، سوى امتلاك العزيمة الكافية لعدم التراجع عن أوامرهم، ومعاقبة الطفل الراض حتى يمثل لها.

يشعر الآباء بالحرَج، حين يطلعون على مفهوم حلقة الإكراه، من إمكانية سيطرة طفلهم على المنزل، فتعمد نوازعهم الداخلية إلى تحريضهم على مواجهته بصورة مباشرة، وهو ما يدفع العديد منهم، إضافة إلى ما يحملون أنفسهم من ذنب التساهل مع أطفالهم، إلى الدخول في نزاع حتمي على السيطرة.

### مخاطر الهجوم المباشر لكسر حلقة الإكراه:

ينخرط الآباء، حين يقومون بالهجوم المباشر، في صراع على السيطرة مع أطفالهم، بحيث يربح أحد الطرفين ويخسر الآخر. يتمثل الطرف الراجح فيمن يمتلك القدرة على المعاقبة بصورة أكبر، حيث يجسد الأطفال ذلك الطرف، في كثير من الأحيان. إن تملك الغضب الطفل بما يكفي لإثارة المشكلات وإشعار الوالدين بالحرَج، فسيضطر الوالدان، في معظم الأحيان، إلى التراجع عن مطالبهم، مما يعني خسارتهم في نهاية المطاف. لا يعني ذلك، بالتأكيد، سوى انتصار الطفل في الصراع على السيطرة، فضلاً عن تعزيز حلقة الإكراه، من قبل الوالدين، عوضاً عن كسرها.

يخسر الآباء - في عديد من الأحيان - عند قيامهم بالهجوم المباشر، لعدم استعدادهم للتعامل مع ما يظهره الطفل المتمرد من عنف للفوز في الصراع على السيطرة. روت لنا إحدى الأمهات، ممن يطلبن مساعدتنا، على سبيل المثال، ما حدث حين حاولت إرغام طفلها على الامتثال لأمر بسيط يتمثل في «الذهاب إلى الفراش». عمدت الأم - بشيء من الغضب، حين سألت الطفل الذهاب إلى الفراش، ورفض الاستجابة لها - إلى حمله بقوة، وإرغامه على الجلوس في مواجهة الحائط. فعمد الطفل، بالنتيجة، إلى ضرب الحائط بقبضته، لتتضح آثارها عليه. سارعت الأم لإنزال الطفل عن الكرسي، قبل أن يُحدث حفرة في الحائط، لتفكر قائلة لنفسها: «سأتراجع هذه المرة فحسب، ولن أفعل ذلك مطلقاً في المرة المقبلة»، وقد كانت تعني ما تقول في حينه.

لم يمثل الطفل -بعد بضع أمسيات- لمطلب أمه بالذهاب إلى الفراش، فعمدت ثانية إلى وضعه في مواجهة الحائط. فكرت الأم، في حينها، قائلة لنفسها: «لن يبرح الكرسي، هذه المرة، حتى يمثل لمطلبي، ويذهب إلى الفراش».

أخذ الطفل في ضرب الحائط بقبضته، لتسيل الدماء منها، دون أن تتراجع الأم قيد أنملة. عمد الطفل فيما بعد -حين أدرك أن ضرب الحائط بقبضته لا يفي بإنزاله عن الكرسي- إلى ضرب رأسه بالحائط، لتسيل الدماء على وجهه.

هرعت الأم، مذعورة، لاحتضان طفلها، قبل أن تعمد إلى طمأنته، قائلة: «لا بأس. ماما تحتضنك» وبالنتيجة لم تسهم الأم في كسر حلقة الإكراه؛ بل عملت على تعزيزها.

#### فكرة رئيسية:

يتسم كسر حلقة الإكراه بما لا يمكن تخيله من الصعوبة.

إن عمد الآباء إلى كسر حلقة الإكراه، عبر الهجوم المباشر، فلا يمكن لهم الانتصار دون إيقاع ما يعجز الطفل عن تحمله من العقوبات، فضلاً عن معاقبته بأشد مما يعاقبهم.

#### كسر حلقة الإكراه-طريقة مختلفة:

توجد طريقة أخرى أكثر فاعلية وإيجابية لكسر حلقة الإكراه، تتضمن التوظيف الكامل لقوة الروتين. يستند نجاح تلك الطريقة للأسباب الآتية:

- يسهم الروتين في تحميل الطفل مسؤولية عدم امتثاله.
- يمكن الروتين الوالدين من استخدام أساليب داعمة مطورة؛ لتوجيه طفلهم نحو النجاح.
- يشجع الروتين الطفل المتمرد على تطوير الأساليب الكفيلة بتهدئة نفسه.

#### تحميل الطفل مسؤولية عدم امتثاله:

يمكن أن يمتنع طفلك عن أداء مهامه المفتقرة إلى المتعة -في نهاية المطاف- بغض النظر عما تظهره من نوايا حسنة، وتقدمه من دعم لمساعدته على إنجازها. يمكن أن يظهر الرفض

جلياً في نبرة الطفل، ونظراته، وملامحه. لا يمثل ذلك إلا ما هو متعمد من التمرد، ويشير إلى رغبة الطفل في مواجهتك، وعدم القبول بما هو أقل من ذلك، استناداً إلى رغبته القديمة في استعادة السيطرة. ومن ثمَّ يعقد الطفل العزم على توريطك في نزاع جديد من أجل السيطرة، ملتصقاً النصر فيه بغض النظر عما يتطلبه من أثمان.

ما الذي يمكن أن تفعله بذلك الصدد؟

لا شيء!، لا تمثل تلك مشكلتك! لا يجدر بك إصدار الأوامر، أو تهديد طفلك، أو معاقبته، عند رفض تلك الأوامر، كي يمثل لها.

يهمش الروتين من النزاع المدمر - على السيطرة - بين الوالد والطفل، عبر تحميل الأخير مسؤولية عدم امتثاله. اعتاد شارلي - البالغ ست سنوات، على سبيل المثال - القيام بما يشاء منذ العشاء حتى حلول موعد الذهاب إلى الفراش، الذي لم يكن يقصده بما يخالف رغبته. ومن ثمَّ عمد والدا الطفل إلى وضع جدول لأنشطته، لتسهّم مع أساليب الوقاية - كما يحدث عادة - في تحسين سلوكه ثلاثة أسابيع، دون ظهور أي من علامات التمرد. وقعت المفاجأة، بكل الأحوال، في إحدى الأمسيات، حين رفض شارلي بشدة الاستحمام بشدة عند حلول الثامنة، ليهرع إلى المطبخ، عند الثامنة وخمس وعشرين دقيقة - قبل خمس دقائق لا أكثر من موعد تناول الوجبة الخفيفة، التي تسبق الذهاب إلى الفراش - ليسأل أمه قائلاً: «أين وجبتي الخفيفة؟».

سألت الأم شارلي - في حينها - قائلة: «ماذا يسبق تناول الوجبة الخفيفة حسب الجدول؟» ليدرك عدم إمكانية تناول الطعام دون التوجه إلى الحمام، مما يمكن ترجمته في أربع من الاستجابات المحتملة.

#### فكرة رئيسية:

يهمش الروتين من النزاع، على السيطرة، بين الوالد والطفل.

استجابات محتملة لعدم تلقي العطاء:

الاستجابة الأولى: طلب المساعدة. أدرك شارلي سريعاً عدم رغبة أمه في الدخول في نزاع على السيطرة لإرغامه على الاستحمام، دون أن تُعدَّ له الوجبة الخفيفة في الوقت

ذاته. عمد الطفل من ثمَّ إلى طلب المساعدة، بما يتسم بالانفعال ويفتقر إلى اللباقة، دون إبداء الأسف، وكأنه يحمّل أمه المسؤولية في إخفاقه بتطبيق الروتين، قائلاً: «حسناً، هل ستساعديني على الاستحمام أو لا؟».

شعرت السيدة ويليامز برغبة في مخاطبته قائلة: «سأساعدك في ذلك، ولكن ليس حين تتحدث إلي بتلك الطريقة!». إن أردت مساعدتي، فيجدر بك أن تطلبها بلباقة، وتقول: من فضلك». لم تفعل الأم ذلك، بكل الأحوال، فهي تدرك أن طفلها يجهد طلب المساعدة بغير تلك الطريقة. لم يمثل طلب الطفل -بالرغم من افتقاره إلى اللباقة- سوى التماس حقيقي للعون، فضلاً عما يرمز إليه من أهمية. أدركت الأم -من ثمَّ- أن الوقت لم يكن مناسباً لتعليم الطفل آداب السؤال، لتعمد إلى إعطائه الإجابة المناسبة عبر الموافقة على مساعدته في الاستحمام.

**الاستجابة الثانية: تحضير وجبة الطعام بنفسه.** حرصت السيدة ويليامز -حين رفض شارلي الاستحمام بشدة في تلك الأمسية- على أن يختبر طفلها عواقب قراره، وذلك بالامتناع عن تحضير وجبة طعامه التي تسبق النوم، لتُفاجأ بدخوله المطبخ، وتحضيره وجبته بنفسه. أدركت السيدة ويليامز -من ثمَّ- أنها خسرت المعركة في تلك الأمسية، ولكن ذلك لا يعني خسارتها الحرب، بكل الأحوال؛ بل ضرورة اختبارها السبب وراء إخفاق الروتين في حينها. لو توجه شارلي إلى المطبخ، في تلك الأمسية، وعثر على قطعة من الكعك في الثلاجة، فستعلم السيدة ويليامز ماذا ستفعل حينها، حيث إنها ستبعد الحلوى والأطعمة السريعة عن تناول الطفل في المرة المقبلة، بما يعني إشرافها على العطاء مجدداً، وإعادة الزخم للروتين. لو عمد الطفل، في احتمال آخر، إلى إعداد شطيرة من زبدة الفستق، في تلك الأمسية، فسيتعين على الأم تعلم ما هو مختلف من الدروس. ستدرك الأم، في حينها، فقدان السيطرة على ما يُمنح للطفل من عطاء، مما يعني ضرورة إيجاد وسائل جديدة لمكافحة الطفل عقب الاستحمام، بما يخضع لإشرافها وسيطرتها. لا يتسم الحل لاستعادة السيطرة، في تلك الحالة، بكثيرٍ من الصعوبة. إن أحب الطفل الكعك أو الفطائر المحلاة، على سبيل المثال، فيمكن للأم أن تحدد بمشاركة الطفل -في بداية كل أسبوع- ما تحويه وجبته الخفيفة من

تلك الأطعمة في كل من الأمسيات. يعجز الطفل عن خبز الكعك أو الفطائر المحلاة، بالتأكيد، فضلاً عن جلب محتوياتها من السوق، مما يعني استعادة سيطرة الأم على العطاء مجدداً.

**الاستجابة الثالثة: الشعور بالغضب.** تملك شارلي الغضب الشديد من جرّاء حرمانه من الحصول على وجبة طعامه في تلك الأمسية. لم تمثل نوبة الغضب تلك - بالرغم من اتسامها بالشدّة - سوى عمل مسرحي مصطنع يهدف - كما في معظم نوبات غضبه - لدفع الأم إلى التراجع عن قرارها، بحرمانه من الوجبة الخفيفة، دون تنفيذ الشق المتعلق بالاستحمام.

لم يصعب على السيدة ويليامز تجاهل غضب طفلها، على ضوء إدراكها تلك الحقيقة. ومن ثمّ لم يحظ عرض الطفل المسرحي بمن يتابعه من المشاهدين، لتتوجه الأم إلى غرفة المعيشة، وتعتمد إلى قراءة إحدى المجلات.

استمرت نوبة غضب شارلي، لسوء الحظ، حتى الثامنة وخمسين دقيقة، بما يعني انتهاء الوقت المخصص لتناول وجبته الخفيفة. وبالنتيجة تعيّن على شارلي الانتقال إلى النشاط المقبل بعد الإخفاق في الاستحمام، والحرمان من وجبته الخفيفة على حد سواء.

حرصت الأم، فيما بعد - حين هدأت ثورة طفلها، وبات مستعداً لتلقي العون، كما بدت الحال عليه- على إعادة توجيه اهتمامه نحو ما يتعين عليه إنجازه من المهام المفتقرة إلى المتعة، بغية الحصول على المكافأة الآتية. وبالنتيجة خاطبت الأم طفلها قائلة: «سننهي قراءة كتاب الديناصورات الليلة. هل أنت مستعد لتنظيف أسنانك، قبل التوجه إلى السرير؟».

أجابها الطفل، بصوت أقرب إلى النحيب، قائلاً: «أود تناول وجبتي» في محاولة أخيرة لإرغامها على التراجع، أو الدخول في مواجهة معه. لم ترضخ الأم لذلك، بكل الأحوال، لتتجه إلى لوح التواصل، وتأخذ البطاقة الخاصة بتنظيف الأسنان، قبل أن تسلمها للطفل بهدوء، قائلة: «سأحضر كتاب الديناصورات، وأكون في انتظارك».

**الاستجابة الرابعة: الانهيار.** تعرض الطفل لانهيار عاطفي حين علم بعدم حصوله على وجبة طعامه في تلك الأمسية. يشبه الانهيار العاطفي نوبة الغضب في بعض المناحي، ليختلف عنها في مناحي مهمة أخرى. يفقد الأطفال، حين يصابون بالانهيار العاطفي، القدرة على التفكير المنظم للسلوك<sup>(50)</sup>، بما يعني توقف الدماغ عن إرسال الإشارات إلى اللحاء الجبهي

-الجزء المسؤول عن تحديد الأهداف، ووضع الخطط لتنفيذها- لتتجه طاقة الدماغ بصورة مباشرة، عوضاً عن ذلك، إلى الجهاز الحويفي - الجزء العاطفي من الدماغ، المسؤول عن الاستجابة إلى التهديدات عبر الفرار أو المواجهة.

يمكن أن ترى آثار الانهيار العاطفي بوضوح على الأطفال، حيث تكتسي أعينهم بطبقة رقيقة لامعة، بما يوحي بعدم القدرة على الرؤية، أو الانقطاع عن التواصل والإدراك، فضلاً عن اكتساء وجوههم بالبياض أو الحمرة، وتشنج عضلات أذرعهم، وبروز العروق في رقابهم، وافتقار أفعالهم إلى السلامة والعقلانية، بما يعد الأكثر أهمية. ينزع الأطفال، عند تعرضهم للانهيار العاطفي، إلى تدمير الممتلكات وإيذاء الآخرين، وأنفسهم في بعض الأحيان.

من ثم أدركت السيدة ويليامز -حين طرأت تلك التغييرات على طفلها- أن اللجوء إلى تهدئته، فضلاً عن استخدام المنطق، أو إخضاعه لعاقبة سلوكه، لا يمكن أن يساعد في تلك الحالة. توقف الجزء المنظم للسلوك، في دماغ الطفل، عن العمل بصورة مؤقتة، ولم يكن للألم سوى السيطرة الجسدية عليه، لتمنع تدمير الممتلكات وإيذاء الآخرين.

### التقييد الجسدي:

يضطر الآباء، في عديد من الأحيان، إلى السيطرة الجسدية على الطفل، حين يصاب بالانهيار العاطفي، وذلك منعاً لتدمير الممتلكات أو إيذاء أي من الأشخاص.

تتمثل الطريقة المتبعة، في تلك الحالة، في الوقوف خلف الطفل، والإمساك بمعصمه الأيسر بيدك اليمنى، ثم الإمساك بمعصمه الأيمن بيدك اليسرى. عمدت السيدة ويليامز - حين أمسكت بمعصمي الطفل- إلى تثبيت ذراعيه إلى ظهره، قبل أن تقوم، مباشرة، بإنزاله إلى الأرض، عبر ثني ركبتيه من الخلف بوساطة ركبتيها. وبالنتيجة نزل الطفل إلى الأرض حين انتثرت ركبته، نتيجة فعل الجاذبية.

ومن ثمّ جلست السيدة ويليامز وطفلها على الأرض بالاستناد إلى ركبهما، وقد كانت تمسكه بقوة من الخلف. عملت السيدة ويليامز -عند بلوغ تلك المرحلة- على حماية وجهها، في حال ضربها الطفل برأسه من الخلف، عبر إدارة وجهها، وتثبيت خدها إلى قمة كتفي الطفل.

سعى شارلي بكل قوته للتخلص من تلك الوضعية، ليشعر بالمزيد من الإحباط من جرّاء إخفاقه، صارخاً في أمه بأعلى صوته: «اتركيني، اتركيني الآن!».

ردت السيدة ويليامز بهدوء قائلة: «سأتركك ما إن تتمكن من السيطرة على نفسك. يتعين عليك أن تهدأ» توقف الطفل عن المقاومة، تدريجياً، لتخفف الأم من قبضتها عليه، في إشارة واضحة إلى معاملته بالمثل. عمدت السيدة ويليامز إلى سؤال شارلي، عقب انتهاء الحالة، كما بدت الحال عليه، قائلة: «هل هدأت الآن؟».

خففت الأم من قبضتها بصورة إضافية، عند إجابة الطفل بالإيجاب، وتوقفه عن المقاومة. ولم يعوزها الحذر، مع ذلك، لعلمها أن إجابة الطفل يمكن أن تمثل خدعة لا أكثر -اعتاد شارلي، في بعض الأحيان، عند إطلاق سراحه- العودة إلى السلوك الذي اقتضى تقييده في المقام الأول. ومن ثمّ عمدت السيدة ويليامز إلى التخفيف من قبضتها تدريجياً، بينما امتلكت الاستعداد الكافي لإعادة تقييد الطفل عند ظهور أولى علامات التمرد.

يجدر بالوالد التحلي بالهدوء، عند اتباع تلك الإجراءات، فضلاً عن السيطرة على عواطفه، وعدم قول الكثير عند التخفيف من السيطرة الجسدية على طفله. يفضل، بكل الأحوال، ألا يزيد في القول عما ورد في المثال السابق.

### أوضح للطفل ومزّنه:

إن زادت احتمالات إصابة طفلك بالانهيار العاطفي، فيجدر بك أن توضح له، في أيّ من أوقات السكينة، كيفية استجابتك حين يفقد القدرة على التحكم بنفسه، فضلاً عن سبب القيام بذلك. يجدر بالشرح أن يتسم بالقصر والمباشرة. يمكن أن تخاطب طفلك، بذلك الصدد، قائلاً: «تقوم، في بعض الأحيان، بما يمكن أن يؤذي الآخرين أو يضر بالملكات، ولا بد من مساعدتك حين تفعل ذلك. دعني أريك ما سأفعل لمساعدتك». يجدر بالوالد، فيما بعد، أن يشرح الإجراءات الواردة في المثال السابق، بينما يخاطب طفله قائلاً: «سأمسك بك بتلك الطريقة لمساعدتك على استعادة هدوئك، وسأتركك ما إن يحصل ذلك».

يقاوم الأطفال الفكرة، في بادئ الأمر، قبل أن يتقبلوا ضرورتها بمرور الزمن. لا يتقبل عديدٌ من الأطفال، في الواقع، تقييدهم من قبل الوالدين فحسب؛ بل يرحبون بذلك -على

حد سواء- حين يدركون ما يسهم به تقييدهم في منع إيذاء الآخرين، وتدمير الممتلكات، والحفاظ على سلامتهم الشخصية.

### تعليم الأطفال كيفية السيطرة على النفس:

إن كنت بحاجة لتقييد طفلك من وقت لآخر، فيجب أن يتعلم كيفية تهدئة نفسه قبل الإصابة بالانهيار العاطفي. يمكن أن تعلم طفلك كيفية القيام بذلك.

تدرج قصة الطفل راندي- البالغ ثماني سنوات- في ذلك السياق. حُرِمَ راندي- حين رفض مشاركة العائلة في ترتيب المنزل وذلك بجمع أغراضه- من العائد المتمثل في مشاهدة برنامج المفضل. ومن ثمَّ عمد الطفل في ثورة من الغضب، إلى التقاط الوسادة الموجودة على الأريكة، ورميها على المصباح، مما أدى إلى تحطيمه، قبل أن يضرب الحائط بقبضته، لتظهر آثارها عليه. لم تمثل تلك نوبة غضب تهدف إلى تحقيق مأرب الطفل، بالنظر إلى ما اكتسى عينيه من لعان، ووجهه من بياض، بما يدل على تعرضه لانهيار عاطفي. ومن ثمَّ أدرك السيد مكفرلاند ضرورة السيطرة الجسدية على الطفل، منعاً لتدمير مزيد من الممتلكات.

### راندي يتولى السيطرة

توجه السيد مكفرلاند إلى غرفة نوم راندي، في تلك الأمسية، قبيل حلول موعد النوم، ليقراً القصة لطفله. خاطب السيد مكفرلاند راندي، بينما كان يمهد وسادته، قائلاً: «أتساءل عن ماهية شعورك اليوم، حين اضطررنا إلى تطبيق إجراءات السيطرة الجسدية».

أجاب الطفل، في محاولة لإنهاء الحوار، قائلاً: «لا أدري. حسبك أن تقرأ». - «سأفعل، ولكنني أود أن نتناقش فيما حدث قبلاً. أتساءل عما إذا كنت ترغب في إيجاد طريقة لتجنب حدوث ذلك».

أجاب الطفل بالإيجاب، بما لا يخلو من فتور.

- «حسناً، فلنفكر معاً. هل يوجد ما يمكن القيام به لتكبت من غضبك،

حين تشعر بالاستياء؟».

- «ما الذي تعنيه؟».

- «أعمد، حين أشعر بالغضب، إلى الجلوس على كرسي، وقراءة المجلة،  
لأتوقف عن التفكير، بعد بضع دقائق، فيما جعلني أغضب في المقام الأول.  
تنجح تلك الطريقة في تهدئتي، فما يمكن أن ينجح في تهدئتك، من وجهة  
نظرك؟».

- «لا أود قراءة شيء. يحول غضبي، عند شعوري بالاستياء، دون جلوسي  
وفعل أي من الأشياء!».

- «تبلي حسناً في تعيين ما لا يفيدك من الطرائق. تتبع طريقة جيدة في  
التفكير. ماذا يمكن أن ينجح في تهدئتك إذاً؟ هل لديك أيُّ من الأفكار بذلك  
الصدد؟».

- «لا».

- «فلنفكر في أي من الأماكن التي تكفل تهدئتك بالقدر الأكبر داخل  
المنزل. هل يمكن أن يتمثل في المطبخ، أو غرفة المعيشة، أو غرفة نومك؟».

- «غرفة نومي».

- «من ثمَّ يعني ذلك أنها المكان الذي يجب أن تلجأ إليه عند شعورك  
بالغضب؟».

- «نعم».

- «وماذا ستفعل داخل غرفتك؟».

- «أمسك بالوسادة، وألكمها مراراً حتى يزول غضبي».

- «راندي، يبدو أنك تملك خطة جيدة للسيطرة على غضبك. ستذهب  
إلى غرفتك وتلكم الوسادة مراراً حتى يزول غضبك. تمثل تلك خطة رائعة.  
هل ترغب في تجربتها؟».

- «بالتأكيد».

## اجعلها رسمية:

طوّر ويليام غلاسر مقارنة حل المشكلات الآتية -المتمحورة حول الطفل- في كتابه «المعالجة بالواقع». أكد غلاسر أن الطفل يلتزم بخطته، بقدر أكبر، حين تتم صياغتها فيما يشبه الوثيقة الرسمية، الممهورة بالتواقيع<sup>(51)</sup>. ومن ثمّ عمد السيد مكفرلاندي إلى طباعة الوثيقة الآتية:

## خطة راندي

المشكلة: أعمد إلى رمي الأشياء، في بعض الأحيان، حين أشعر بالغضب.  
رميت الوسادة، ذات مرة، لتصيب المصباح، وتطيح به، وتحطمه بالنتيجة.  
أدفع الآن ثمنه من مصروفي.

التهديئة: تتمحور خطتي، حين أشعر بالغضب، حول الذهاب إلى غرفتي،  
ولكم الوسادة مراراً حتى يزول غضبي.

العون المطلوب: سؤالي، من قبل أمي أو أبي، عما إذا كنت بحاجة للذهاب  
لكم وسادتي، ومنحي الخيار فيما أرتأيه مناسباً.

---

 مارك مكفرلاندي
 

---



---

 راندي مكفرلاندي
 

---

التاريخ

مايفس مكفرلاندي

## الالتزام:

يجدر بك السماح لطفلك بإخبار الآخرين بخطته، إن رغبت في مساعدته على الالتزام بها. ومن ثمّ يجدر بالطفل إطلاع ثلاثة من الأشخاص -على أقل تقدير- على خطته. عمد راندي، إضافة إلى إعلام والديه بخطته، إلى إطلاع معلمته في الصف الثالث، والسيدة كيرل، المسنة التي تحضر إلى المنزل، بين الفينة والأخرى، لرعايته، على تلك الخطة أيضاً. وقبلاً أعلمت السيدة مكفرلاندي السيدتين برغبة طفلها في إطلاعهما على ما هو مهم من الأمور، بغية حضهما على الإصغاء بمزيد من الاهتمام لخطته.

## المظاهر السابقة/ المسببات:

يعجز الأطفال المتمردون عن إدراك الأحداث المسببة لانهيائهم العاطفي. يحتاج الآخرون، من ثمّ، للوالد أو مانح الرعاية لمساعدتهم في معرفة ما يمكن أن يدفعهم للإصابة بالانهيار.

تمثل تلك فائدة أخرى للروتين. لا يتعرض الطفل للانهيار، حين يعمل بالجدول، إلا نتيجة لما هو رئيس، ومنفرد، ومن الأسباب: عدم إنجاز المهام المفتقرة إلى المتعة، التي تخوّله الحصول على المكافآت. لا يصاب الطفل بالانهيار، بكل الأحوال، كلما حُرّم من العطاء، ولا يحدث ذلك إلا في بعض الأحيان، بما يشمل بعض المكافآت. ينزع الأطفال، في تلك الحالة، إلى التعبير عن غضبهم بطرائق مختلفة، بما يشمل إثارة الجلبة، والجدال، بينما يعمد قلة منهم إلى التراجع. يمكن للوالد معرفة المؤشرات الدالة على غضب طفله، بغض النظر عن ماهيتها. ومن ثمّ يجدر بك عند رؤية المظاهر التي تسبق الانهيار العاطفي، أن تعمل على مساعدة طفلك في تطبيق خطته.

تمثل مسبب الانهيار العاطفي، في حالة راندي، في عدم مشاهدة برنامجه التلفزيوني المفضل. سبق ذلك، بكل الأحوال، بما هو مبكر من المسببات. اتخذ راندي خطواته الأولى نحو الإصابة بالانهيار العاطفي بمجرد إخفاقه في إنجاز المهمة المفتقرة إلى المتعة، التي تخوّله مشاهدة برنامجه التلفزيوني المفضل. ومن ثمّ عمد السيد والسيدة مكفرلاند نتيجة معرفتهما بذلك، إلى مساعدة طفلهما في تنفيذ خطة تهدئته الذاتية، قبل وقت طويل من تحول غضبه إلى انهيار عاطفي. خاطب الوالدان الطفل، حين أدركا إخفاقه في أداء المهمة المفتقرة إلى المتعة، وتراكم غضبه، قائلين: «راندي، هل يفيدك الذهاب لِكُم وسادتك بعضاً من الوقت؟».

### فكرة رئيسية:

يحتاج من يصابون بالانهيار العاطفي من الأطفال إلى الوالد أو مانح الرعاية لمساعدتهم في معرفة ما يمكن أن يدفعهم للإصابة بالانهيار، وذلك يمكّنهم من اتقاء حدوثه.

## لعب الأدوار:

يحتاج الأطفال إلى ممارسة السلوك الجديد حين يحاولون تغيير سلوكهم القديم. يستدعي ذلك القيام بلعب الأدوار، بما يسهما بالواقعية بصورة تدريجية، بحيث يصعب تمييزها عن الحدث الحقيقي في نهاية المطاف. يتسم لعب الأدوار بالأهمية لاثنتين من الأسباب: الأول، مساعدة الطفل على ممارسة السلوك الوقائي الجديد، واختبار ما يتخلله من عوامل سمعية وبصرية، بما يسهم في تحوله إلى عادة تلقائية. الثاني، إعلام الطفل بإمكانية خروجه رابحاً، بالرغم من ارتكابه الأخطاء.

عمد السيد مكفرلاند إلى لعب الأدوار، بضع مرات، مع طفله راندي، ليخاطبه في المرة الأولى، بما يتسم بالبساطة، قائلاً: «راندي، هل تحتاج وسادتك اللكم؟»، ليذهب الطفل المبتسم إلى غرفته للقيام بذلك. عمد السيد مكفرلاند، في المرة الثانية، إلى مطالبة راندي بعدم إنجاز المهمة المفتقرة إلى المتعة، وتصنع الغضب، قبل أن يسأله قائلاً: «راندي، هل تحتاج وسادتك اللكم؟».

طالب السيد مكفرلاند راندي، في المرة الثالثة، بعدم إنجاز المهمة المفتقرة إلى المتعة، وتصنع شديد الغضب، من جراء حرمانه المصطنع من متابعة برنامجه المفضل، بما يوصل الأمور إلى حافة الانهيار العاطفي، قبل أن يخاطبه قائلاً: «راندي، هل تحتاج وسادتك اللكم؟» عمد السيد مكفرلاند، فيما بعد -عقب توجه الطفل إلى غرفته، وقيامه بلكم الوسادة بضع مرات- إلى مخاطبته قائلاً: «كان تمثلك عظيماً يا راندي. فلنقم الآن بإنجاز المهمة المفتقرة إلى المتعة، فعلياً، كي تتمكن من متابعة برنامجك المفضل».

## الجدولة الذاتية للخطة:

تمكن جدولة السلوك المستهدف الأطفال من استذكاره، وتمنحهم الفرصة للتمرن الذهني على تنفيذ خططهم. عمد راندي، بالنتيجة، إلى الجدولة الذاتية لخبطه على النحو الآتي:

### تطبيق خطتي

الهدف: التوجه إلى غرفتي، حين أشعر بالغضب، فضلاً عن الاستلقاء على السرير، ولكم وسادتي.

سأعمد إلى إكمال هذا الجدول، الذي يغطي أسبوعاً واحداً، في كل أمسية، عبر وضع إشارة في المكان المناسب.

الجمعة	الخميس	الأربعاء	الثلاثاء	الاثنين	الأحد	السبت	
							لم أحتج الخطة
							احتجت الخطة، وطبقتها
							احتجت الخطة، ولكن لم أطبقها

يقدم قليلٌ من الجدولة الذاتية العون، ولا يجذب الإكثار منها. تستكمل الغاية القصوى للجدولة الذاتية في أسبوع واحد، لا أكثر، بما يجسد المدة الزمنية المطلوبة لحفظ الخطة من قبل الطفل، والتمرن على تطبيقها. يتمحور السؤال - ما إن يلم الطفل بالخطة - حول إمكانية نجاحها. لا يستلزم المزيد من الجدولة لضمان ذلك. لا تحتاج الجدولة الذاتية - بعد مضي أسبوع - إضافة إلى ذلك، إلى كثيرٍ من التفكير لإنجازها.

### لا إخفاق:

في بعض الأحيان تخفق الخطة الأولى كما في السابق، وعند حدوث ذلك لا تقل أن طفلك أخفق، أو حتى تلمح إلى ذلك. تتجسد الحقيقة، بالأحرى، في أن الخطة هي التي أخفقت طفلك، لا محتواها على مكان من الخلل. ومن ثمَّ يجدر بالوالد حين تخفق الخطة، أن يخاطب الطفل قائلاً: «تمثل الخطة بداية جيدة، ولكنها تحتاج إلى بعض التعديلات، كما تبدو الحال عليه. فلنفكر فيما يمكننا فعله بذلك الصدد». يدرك الطفل على الدوام، بصورة تقريبية، أسباب إخفاق خطته، ويمكن له تقديم ما هو جيد من الاقتراحات لتعديلها، كي تحقق النجاح المطلوب في نهاية المطاف.

**فكرة رئيسية:**

إن لم يطبق طفلك الخطة، فلا يعني ذلك إخفاقه. تتجسد الحقيقة، بالأحرى، في أن الخطة أخفقت طفلك.

\*\*\*\*\*

## تطبيقات

1. تحميل الطفل مسؤولية تمرده: لا يمكن تحميل الطفل المسؤولية عن الإخفاق في تطبيق الروتين ما لم تعمل على ذلك، بما يعني عدم إعطاء أوامر «ألفا»، أو إطلاق التحذيرات، حين يكافح الطفل لإنجاز ما يحويه جدولته من مهام تفتقر إلى المتعة. يجدر بك -للحول دون إعطاء أوامر «ألفا» وإطلاق التحذيرات- أن تكمل التمرين الآتي، باثنتين أو أكثر من المهام، أثناء الأسبوع الأول لتطبيق الروتين:

المهمة المرفوضة	كيفية توظيف فاعلية الروتين
8: 10 لم يبدأ كليفورّد الاستحمام.	سؤاله: «ماذا ينص عليه جدولك؟».
8: 50 لم ينظف رستي أسنانه.	سؤاله: «ما ينص عليه الجدول قبل الاستماع إلى القصة؟».
8: 45 لم يُنّهِ جستيّن الاستحمام.	حرمانه من الوجبة الخفيفة.

2. كن مساعداً: يمنحك الطفل الفرصة لمساعدته، حين يكافح لإنجاز مهامه المفتقرة إلى المتعة. تتمثل إحدى طرائق القيام بذلك في طرح الأسئلة (عوضاً عن توجيه الأوامر) بما يساعد الطفل في التركيز على ما يؤديه من مهام. يمثل توفير الخيارات ما هو جيد من السبل لإنجاز ذلك، بما توضحه الأمثلة الآتية:

هل تود اللعب بالبطّة في حوض الاستحمام، أو تود اللعب بالقارب؟

هل تود أن أملاً الحوض بالماء، تمهيداً للاستحمام؟

متى يحين وقت وجبتك الخفيفة؟

ساعدته عبر سؤاله

كافح الطفل لإنجاز

---



---



---



---



---



---

3. هل يمكن أن يُظهر طفلك، من أنماط السلوك، ما يهدد الصحة، أو السلامة، أو

الممتلكات؟

\_\_\_\_\_ نعم \_\_\_\_\_ لا

إن اخترت الإجابة بنعم، فاعمل على إيجاد الوقت المناسب لمحادثة طفلك بصورة مقتضية. يجدر بك أن تتسم بالصراحة واللفظ أثناء الحديث. يمكن أن تخاطبه، بذلك الصدد، قائلاً: «بني، تتوافر الفرصة بحسب اعتقادي، حين تشعر بالاستياء، لقيامك بما يمكن أن يؤدي الآخرين ويضر بالممتلكات. لا تفعل ذلك في منزلنا. ومن ثمّ دعني أريك ما سأفعل لمساعدتك على تهدئة نفسك» يجدر بك، فيما بعد، أن تشرح الإجراءات المتبعة للسيطرة الجسدية على طفلك.

4. مساعدة الطفل على تهدئة نفسه: أكمل الخطة الآتية:

[اسم صاحب] \_\_\_\_\_ الخطة

\_\_\_\_\_ السلوك المقلق:

\_\_\_\_\_ خطة التهدئة الذاتية:

\_\_\_\_\_ العون المطلوب:

\_\_\_\_\_ [توقيع الوالد] \_\_\_\_\_ [توقيع الطفل] \_\_\_\_\_ [التاريخ]

أ. اطبع الخطة.

ب. امهرها بالتوقيع.

ج. مكّن الطفل من إطلاع ثلاثة أشخاص، على الأقل، على تفاصيل خطته.

د. ادفع الطفل - باستخدام الجدول الوارد في ص 146 - إلى الجدولة الذاتية لما يملكه من مقدرة على اتباع الخطة أسبوعاً من الزمن.

5. إن استمر الطفل في إطلاق ثورات غضبه بما يهدد سلامة الآخرين، أو الممتلكات، فلا يعني ذلك إخفاقه؛ بل إخفاق الخطة. اعمد إلى كتابة خطة جديدة.



## قواعد وأدوات

تحتاج المنازل إلى ما هو منطقي من القواعد. أظهر التاريخ على الدوام عدم التزام الناس بما يفترق إلى المنطقية من قواعد، كما حدث في الولايات المتحدة، في العام 1920، على سبيل المثال، حين صدر قانون حظر الكحول، ليزيد استهلاك الأمريكيين لها، عوضاً عن انخفاضه، بالنظر إلى قناعة معظمهم بأحقيتهم في استهلاك المشروبات الكحولية<sup>(52)</sup>. يستجيب الأطفال بالطريقة ذاتها، رافضين ما يفترق للمنطقية من قواعد. ويتعين على الوالدين -حين يضعون القواعد لأطفالهم- مقاومة النزعة إلى وضع ما هو طويل من اللوائح المرهقة. تعوز الصحة الاعتقاد المتمثل في زيادة السيطرة عبر زيادة عدد القواعد، ليسهم فيما هو عكسي من النتائج، عبر الخلط بين ما يتسم بالضرورة من تلك القواعد ويفترق إليها، فضلاً عن استنزاف الطاقات، بما يزيد الطين بلة، فيما هو عبثي من المعارك.

تحفظ القواعد الضرورية سلامة المنزل، وتدفع عجلة الحياة داخله. يستلزم ذلك ثلاثاً منها، لا أكثر:

- عدم لجوء ساكني المنزل إلى إيقاع الأذى الجسدي بأيٍّ من الأفراد، أو بأنفسهم، أو التهديد بذلك.
- عدم إضرار ساكني المنزل بممتلكات أيٍّ من الأفراد، أو التهديد بذلك، فضلاً عن سرقتها أو الاستيلاء عليها.
- عدم قيام أيٍّ كان بما يحرم الآخرين من حقهم الرئيس في التمتع بالحياة داخل المنزل.

تتسم القاعدتان الأوليان بالمنطقية في نظر الأطفال. يدرك الآخرون، حين يتعلمون المشي -بصورة غريزية- أنه لا يجدر بهم إيقاع الأذى بالناس، بينما يدرك من يدخلون الحضانة أنه لا يجدر بهم تحطيم أغراض الآخرين، أو الاستيلاء عليها. يصعب على الأطفال، بصورة أكبر، إدراك القاعدة الثالثة. يمكن توضيح الأخيرة عبر الفكرة الآتية: يتوقع كل من أفراد العائلة، حين يعيشون معاً في المنزل، أن يحظوا بحقوق رئيسة، بما يشمل -على سبيل المثال- الحق في النوم الهادئ ليلاً. لا يحق لطفل في الخامسة من العمر أن يثير الضجيج في المنزل، في الثانية صباحاً، بما يرغم أمه على النهوض من السرير، ومطالبته بالكف عن ذلك. يملك أفراد العائلة الحق في التمتع بوجبتهم دون أن يطلق أحدهم ثورة غضبه على المائدة، ويطيح بأطباقها. لا يجدر بأي من أفراد العائلة الاستيقاظ فجأة من النوم، عند الثالثة صباحاً، على وقع ما يديره طفل -في الثانية عشرة- من الموسيقى الصاخبة. تطول لائحة الحقوق الرئيسة التي يتوقعها أفراد العائلة بذلك الصدد، ولكنها يمكن أن تجمل فيما يصف «المواقف الرمادية» من العبارات: يمكن أن يتسم توصيفها بالصعوبة، ولكنها تدرك على الفور حين يختبرها الإنسان.

تتطبق القواعد الثلاث السابقة، بكل الأحوال، على جميع أفراد العائلة. لا يحق للطفل أن يؤذي الأم، على سبيل المثال، كما لا يحق للأم أن تؤذي طفلها.

يجدر بالوالد -إضافة إلى توخي المنطقية فيما يضعه من قواعد- أن يوجد ما يدفع من الأسباب للتقيد بها، بما يعني إيجاد العواقب حال خرق القواعد. ولكن ماذا يمكن أن تتمثل به تلك العواقب؟

## البحث عن العواقب المناسبة:

### المعاقبة:

أول ما يتبادر إلى الذهن -حين يخرق الأطفال القواعد- هو ضرورة معاقبتهم. يمكن تعريف المعاقبة -في سياقها المتمحور حول النظرية السلوكية- بضرورة قيام الوالد بعمل ما ضد الطفل، بغية التقليل من قابلية الأخير لكسر القواعد ثانية<sup>(53)</sup>. تكتسب المعاقبة من منظور العامة، مع ذلك، ما هو أكثر مباشرة من المعاني، بما يعني القيام بعمل ما ضد الطفل، بغية دفعه إلى الندم بشدة على ما اقتترف، وعدم تكرار فعلته مخافة تعرضه للعقاب.

يتبادر الضرب على المؤخرة إلى الذهن مباشرة، عند الحديث عن المعاقبة. يتسم الضرب على المؤخرة، في الواقع، بالشيوع فيما يتعلق بتأديب الأطفال، بحيث تشجع إحدى المقولات على استخدامه: «وفر العصا وافسد الطفل». يعتقد العديد من الناس، إضافة إلى ذلك - بما يشمل بعضاً من علماء السلوك<sup>(54)</sup> - بفاعلية تلك الطريقة في المعاقبة.

يمثل «التصحيح المفرط» وسيلة أخرى للمعاقبة<sup>(55)</sup>، بما يعني إرغام الطفل - حين يرتكب الأخطاء - على القيام بالفعل الصائب مراراً. لا يهدف التصحيح المفرط إلى تعليم الطفل ما هو جديد من المهارات؛ بل إذلاله بحيث يحجم عن تكرار خطئه، كما يحدث، على سبيل المثال، حين يضبط المعلم الطالب وهو ينزل درج المدرسة جرياً على قدميه، ليعتمد إلى مطالبته بصعوده وهبوطه بتؤدة خمساً وعشرين مرة.

تجسد «كلفة الاستجابة» وسيلة ثالثة للمعاقبة<sup>(56)</sup>، ولا بد لتطبيقها من إيجاد ما يحفز الطفل قبل أن يعتمد إلى خرق القواعد، كما يحدث، على سبيل المثال، حين يعلن المعلم - في بداية الأسبوع - عن مكافأة لمن يحصل عشرين درجة من الطلاب عبر مشاهدة فيلم فيما بعد ظهيرة الجمعة. يعتمد المعلم في مقاربتة على منح الطالب درجة واحدة على إنجاز الفرض المدرسي في موعده المحدد، وحرمانه من درجتين حال عدم القيام بذلك. تمثل كلفة الاستجابة ما يتسم بالسلبية من أنظمة المكافأة. تتجسد الناحية السلبية - حال إخفاق الطفل في اتباع السلوك المطلوب - في حرمانه مما بذل الجهد لاستحصله، مما يجسد روح المعاقبة في تلك الطريقة، التي تسبب الأذى لمشاعر الأطفال المتمردين، وتزيد من حنقهم إلى أبعد الحدود.

يمثل «الوقت المستقطع» إحدى الوسائل الشائعة والمعتمّدة بصورة كبيرة لمعاقبة الأطفال<sup>(57)</sup>. يعتمد الآباء - عند اتباع تلك الطريقة - إلى إجلاس الطفل على كرسي في مواجهة الحائط، وإبقائه على تلك الوضعية مدة من الزمن، حتى تتحقق شروط معينة. تتمحور القاعدة المتبعة - فيما يتعلق بالوقت المستقطع - حول إجلاس الطفل على الكرسي بما يعادل دقيقة لكل سنة من العمر<sup>(58)</sup>، بما يعني، على سبيل المثال، جلوس طفل في السادسة ست دقائق في مواجهة الحائط، بينما يجلس من يبلغ العاشرة عشر دقائق، وهكذا دواليك. يتعين على الطفل المتمرد - إضافة إلى ذلك - أن يجلس على كرسي الوقت المستقطع حتى يلتزم بأوامر والديه.

**إيجابيات المعاقبة:** تمثل المعاقبة، في العديد من الأحيان، وسيلة فاعلة لإنهاء السلوك السيئ بصورة مباشرة، فضلاً عن ضمان عدم تكراره، على الأرجح، طالما بقي المعاقب (الذي يمثل الوالد في تلك الحالة) إلى جانب الطفل. تتسم المعاقبة بالفاعلية، على وجه الخصوص، لما تجسده من استجابة مفاجئة لما هو غير متوقع من أنماط السلوك السلبية، كما يحدث، على سبيل المثال، حين يقترب الطفل من موقد الغاز، لتعمد الأم إلى ضربه على مؤخرته، قائلة: «لا!». يسحب الطفل يده على الفور، وبالنتيجة، يغادر المطبخ باكياً، مما يسهم في إنقاذه من الاحتراق على أقل تقدير.

**سلبيات المعاقبة:** توجد العديد من الأسباب التي توجب على الوالدين عدم معاقبة الأطفال. يتمثل أولها في أن المعاقبة ترشد الطفل إلى ما لا يجب القيام به من الأفعال الخاطئة، بينما تعجز عن تعليمه ما يجب القيام به من الأمور الصحيحة. يمكن للمعاقبة أن تتسم بالإيجابية لو كانت غاية التربية تقتصر على التحكم في سلوك الأطفال حتى يبلغوا الثامنة عشرة، ويغادروا المنزل، وهو ما يجا في الحقيقة. لا تتمحور التربية حول منع الأطفال من القيام بالأمور السيئة؛ بل تعليمهم كيفية الانخراط فيما هو واعد، ومنجز، من أنماط الحياة. لا تتسم تلك المهمة بالسهولة، ولا يمكن للمعاقبة أن تقدم العون للوالدين على إنجازها.

تتجسد سلبية المعاقبة الكبرى فيما تسهم به من زيادة العدوانية لدى الأطفال المتمردين. يتعين على الوالدين -إضافة إلى ذلك، إن أرادوا معاقبة الطفل- أن يتسموا بكثير من الحزم والقوة الجسدية. فلننظر إلى أشد أنواع المعاقبة -الضرب على المؤخرة- على سبيل المثال. لا يقبل كثير من الأطفال المتمردين طواعية بأن يضربوا على مؤخراتهم؛ بل يقومون بما في وسعهم، في الواقع، لمقاومة ذلك، بما يشمل الضرب، والركل، والعض، فيتحول الضرب على المؤخرة، في تلك الحالة، إلى صراع جسدي بين الطفل والوالد، يمكن أن يخسره الأخير، وإن فاق الطفل في الحجم والقوة الجسدية.

لنفرض، على سبيل المثال مجدداً -فيما يتعلق بعقوبة التصحيح المفرط- أن الطفل عجز عن أداء فرضه المدرسي أثناء نصف ساعة من الزمن، ليعمد الوالد إلى مطالبته بأدائه أثناء ساعة كاملة، مما يدفع بالطفل المتمرد إلى الجري لغرفته، والاختباء تحت السرير. ما

سيُفعل الوالد في تلك الحالة؟ سيضطر -بغية فرض عقوبته- إلى النزول أسفل السرير، والإمساك بقدم الطفل، ثم سحبه إلى الخارج، بينما يركل ويصرخ بأعلى صوته. لا يمثل ذلك سوى البداية فحسب، بالنظر إلى ضرورة اقتياد الطفل، فيما بعد، إلى طاولة الدراسة، وإرغامه على البقاء هناك ساعة كاملة.

لا يختلف الأمر فيما يتعلق بطريقة كلفة الاستجابة. هل سيقبل الطفل المتمرد طواعية التخلي عما جمعه من نقاط طوال يومين؟ لا يقتصر الخلل في تلك الطريقة على ذلك. لنفرض أن الوالد يستخدمها لدفع طفلته إلى ترتيب غرفتها في كل من الأمسيات، بما يعني منحها نقطة كلما قامت بذلك، وحرمانها من اثنتين حين ترفض ترتيب غرفتها. إن حظيت الطفلة بسبع نقاط، بحلول ما بعد ظهيرة الأحد، فسيُسمح لها بالذهاب إلى السينما لمتابعة الفيلم الذي يعرض في ذلك اليوم. ومن ثمّ تعتمد الطفلة نتيجة ما تشعر به من حماسة، إلى دعوة صديقتها لمرافقتها إلى السينما يوم الأحد المقبل. تحرص الطفلة -إضافة إلى ذلك، بدافع من المكافأة التي تنتظرها- على ترتيب غرفتها في ثلاث أمسيات متعاقبة، لتجتم عن ذلك يوم الأربعاء، بالنتيجة يعتمد الوالد إلى حرمان الطفلة من نقطتين، لتدرك الطفلة على الفور أنها ستعجز عن الذهاب إلى السينما مع صديقتها يوم الأحد المقبل، مما يثير غضبها إلى أبعد الحدود. ومن ثمّ سيدفع الطفلة إلى ترتيب غرفتها فيما تبقى من الأسبوع؟

يجسد الوقت المستقطع، بحسب مطبقيه، ما هو معتدل من العقوبات، ويمكن اعتباره كذلك إن خضع له الطفل بملء إرادته، وهو ما لا ينطبق على العديد من الأطفال المتمردين. ماذا يمكن أن يفعل الوالد بعد ذلك؟ لن يتسم الوقت المستقطع بالفاعلية، مجدداً، ما لم يفرضه الوالد على الطفل. سيعمد الوالد، بالنتيجة، إلى الإمساك بالطفل، ومحاولة جره إلى كرسي الوقت المستقطع. سيقاوم الطفل الوالد، عبر ركله وضربه، ليعمد الوالد -بدافع من غضبه وإحباطه- إلى ضرب الطفل على مؤخرته. لا يسهم الاعتدال في الضرب، بكل الأحوال، في دفع الطفل للذهاب إلى الكرسي، ليضرب الوالد الطفل بشدة، مما يسهم في تحول الوقت المستقطع -الذي يتوخى الاعتدال في المعاقبة- إلى ما يتسم بالخطورة من الإساءة الجسدية.

تتمثل السلبية الأخيرة لاستخدام العقاب، للتحكم بسلوك الطفل السلبي، فيما ينتج عن الآباء - حين يفرضون عقوباتهم - من خرق للقاعدة الأولى التي يحثون الطفل على تطبيقها - عدم لجوء ساكني المنزل إلى إيقاع الأذى الجسدي بأي من الأفراد. يتعلم الأطفال سريعاً - حين يخرق استخدام الوالدين للعقاب تلك القاعدة - الدرس المتمثل في إمكانية استخدام الكبار القوة ضد من يصغروهم حجماً.

### عرض موجز لتاريخ العقاب:

يعود استخدام العقاب، للتحكم في السلوك، إلى ربح طويل من الزمن. اعتقد الناس، في المدة التي عرفت بعصر التنوير، بين عامي (1600 - 1700)، أن ما يشخص الآن مرضاً للفصام، يمثل مسأً من الشيطان<sup>(59)</sup>. ومن ثمّ عوقب «المسكونون بالشيطان» في تلك المدة بما يتسم بالشدّة والفظاعة، لاعتقاد الناس أن ذلك يكفل إخراج الشيطان من أجسادهم. تتجلى آثار تلك المعتقدات، حتى يومنا هذا، فيما يخاطب به الوالد الطفل، حين يثير كثيراً من الشغب، قائلاً: «يتلبسك الشيطان بلا ريب!».

لم تنتهِ عقاب المصابين بإعاقات أخرى - بغية التحكم في سلوكهم - بانتهاء العصور المظلمة. استخدمت العقاب بصورة شائعة، منذ أربعة عقود، لا أكثر، في محاولة لتغيير سلوك المصابين بالإعاقة الذهنية، ممن اتسم حظهم بالسوء، على وجه الخصوص، بحيث أدخلوا مصحات مداراة من قبل الدولة<sup>(60)</sup>. قل استخدام العقاب بصورة متزايدة، بكل الأحوال، بدءاً من أواخر الستينيات من القرن المنصرم، بغية التحكم في سلوك المصابين بالإعاقة الذهنية. لا تمثل البرمجة السلوكية الموضوعة لعقاب الآخرين، في يومنا هذا، إلا ما هو مرفوض من الاستثناءات. أضحي من كانوا يقيدون ذات يوم إلى الأعمدة الصلبة في غرف المصحات النفسية، نتيجة لما سبق، أضحوا يعيشون اليوم بسعادة فيما يخضع للرقابة من الشقق، فضلاً عن جني المال عبر العمل فيما يدعى مجموعات العمل الخاصة، أو التوظيف المدعوم.

لم يسلم المصابون بمرض التوحد، على حد سواء، من التعرض للعقاب. تمثلت أكثر الطرائق المعتمدة شيوعاً لمعالجة الآخرين، منذ بضعة عقود، لا أكثر، في معاقبتهم على ما

يظهرونه من سلوك توحدي. يدرك العديد من المعالجين الآن، لحسن الحظ، أن المصابين بمرض التوحد لا يتوقعون عن إظهار ذلك السلوك نتيجة المعاقبة. لا يتعلم الأطفال المصابون بالتوحد أو يتصرفون بصورة أفضل، بالنقيض من ذلك، إلا حين يزودون بما هو محدد، ومتفرد، من الأسس التي تمكنهم من تنظيم عالمهم وإدراكه<sup>(61)</sup>.

يندرج الأطفال المصابون باضطراب العناد الشارد ضمن الفئة الأخيرة المتبقية من ذوي الأمراض السلوكية، التي عدت المعاقبة جيدة لعلاجها. تتسم معاقبة الأطفال المتمردين، في الحقيقة، بكثير من الإغراء، حيث يمكن أن يبصقوا في وجهك، ويطيحوا بالمقاعد، ويعمدوا إلى شتمك، ويرفضوا، بمنتهى العناد والتصلب، الامتثال إلى أكثر ما يتسم بالمنطقية من المطالب. يشعر المرء بالسعادة، لا أكثر، لمعاقتهم، ويعجز كثيرون عن منع أنفسهم من القيام بذلك في بعض الأحيان.

أرفض، بكل الأحوال، معاقبة الأطفال المتمردين، لما يشير إليه التاريخ من عقم تلك الطريقة. لم تمثل المعاقبة الحل لمساعدة المصابين بالفصام، أو الإعاقة الذهنية، ولم تمثل الطريقة الصحيحة لمساعدة الأطفال المصابين بالتوحد. ومن ثمّ لم تكن حلاً لمساعدة الأطفال المصابين باضطراب العناد الشارد؟ يعود رفضي معاقبة الأطفال المتمردين، بكل الأحوال، إلى ما هو أكثر شخصية من الأسباب. أرفض معاقبة الأطفال المتمردين حين أفكر في كيفية استجابة أحدهم، مايك، حين تعرض للعقاب.

### الانتقام

قدمت المشورة بصورة أسبوعية، قبل سنوات خلت، في وكالة لرعاية الأطفال المصابين بإعاقات مختلفة. دخل مايك -البالغ خمسة عشر عاماً- إلى مكنتي، فيما بعد ظهيرة أحد الأيام، بينما كنت أطبع أحد التقارير، لأداء مهمته اليومية المتمثلة في كنس الأرضية. لم يكن الطفل أحد مرضاي، ولكنني كنت أعرفه لسمعته السيئة. شُخِّصت مشكلة مايك في الإصابة باضطراب العناد الشارد، وقد كان يرفض الاستجابة إلى ما يطلب منه، إن كره السائل، فضلاً عن إظهار العدوانية الشديدة إن أرغم على التنفيذ. ومن ثمّ خضع الطفل لبرنامجنا العلاجي الداخلي نتيجة لتمرد الانتقائي وعدائته الموجهة.

بدأ مايك في كنس الأرضية خلف مقعدي، بينما كنت أطبع التقرير. توقف للاستراحة برهة، قبل أن يعتمد إلى مخاطبتي، قائلاً: «سأتصل بماري الليلة». عقت، لمعرفتي أنها المسؤولة عن معالجته، قائلاً: «سيمثل ذلك أمراً لطيفاً يا مايك. ستسعد ماري بالاستماع إليك». منحني الطفل نظرة حائرة، قبل أن يكرر عبارته، قائلاً: «سأتصل بماري الليلة». لحظت أنني لم أدرك مقصد الطفل، لأعمد إلى سؤاله قائلاً: «وما ستقول لماري؟».

رد الطفل بانفعال قائلاً: «لا شيء!».

- «لا شيء؟».

- «نعم. لن تسمع شيئاً، حين ترد على مكالمتي».

- «ولم الصمت؟».

- «سيتم ذلك في الثانية صباحاً، وهو الوقت الذي سأضبط منبهى وقته».

- «ولم ستفعل ذلك لماري؟».

- «لأنني لم أرتب سريري، يوم الاثنين الفائت، مما دفعها لإخباري بعدم إمكانية ذهابي إلى السينما في عطلة نهاية الأسبوع. سأعمد إلى الانتقام منها ومن أجل ذلك ثقت عجلات سيارتها البارحة، وسأتصل بها في الثانية صباحاً اليوم، وسأضع ثعباناً في درج مكتبها في الغد. سأكون قد انتقمت بذلك».

من ثمّ تعلمت من مايك أن الأطفال المتمردين يكرهون التعرض للمعاقبة، ويسعون للانتقام حين تتم معاقبتهم.

#### فكرة رئيسية:

تسهّم معاقبة الأطفال على مر الزمن، في كثير من الأحيان، في جعلهم أكثر تمرداً.

#### أصلي لله

أفكر على الدوام في كالفن، كلما شعرت بالرغبة في معاقبة أيّ من الأطفال المتمردين. بلغ كالفن العاشرة من العمر، وقد كان مظهره يدل

على الذكاء، والوسامة، واللطف، فيما ندر من الأوقات. عانى الطفل كثيراً من المشكلات السلوكية، مع ذلك، وقد دل تشخيصه الرئيس على الإصابة باضطراب العناد الشارد.

التقيت كالفن (أو أثار اهتمامي، بالأحرى) للمرة الأولى، حين أخضع لبرنامج علاج داخلي. اتسم الطفل بما لا يمكن علاجه من التمرد، كما بدت الحال عليه، فضلاً عن رفضه الشديد القيام بما يطلب منه، وإن اتسم بالبساطة إلى أبعد الحدود. إن طوبل بطيٍ قليل من ثيابه المغسولة حديثاً، على سبيل المثال، فقد كان يعمد إلى إلقائها على أرضية غرفته، بما يدفع المعالجين إلى حثه، وتشجيعه، ثم تهديده بما هو وخيم من العواقب، ليدعن في نهاية المطاف، عقب مضي ما يقارب الساعتين والنصف. ومن ثمّ لم يرق الطفل لأكثر المعالجين تمرساً في البرنامج بما لا يثير الاستغراب، بالنظر إلى ما يثيره من متاعب، في الأوقات كافة. اتسم الطفل بمزيد من التمرد وعدم الامتثال كلما حاولوا إرغامه على الإذعان لمطالبهم، وقد عبّر أحدهم عن ذلك، قائلاً: «أراهن على أنه سيرمي المثلجات في القمامة، إن طالبتة بتناولها!».

اتسم كالفن، بكل الأحوال، بما لا يمكن رؤيته من الجوانب الإيجابية. كان يتغير بالمطلق حين يأوي إلى فراشه، عند نهاية اليوم، بكل ما يتخلله من متاعب. كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه يصبح كالفن الحقيقي في تلك اللحظة. عمد إلى سؤالي ذات ليلة، بعد أن قرأت له قبل النوم، وهممت بمغادرة الغرفة، قائلاً: «هل يمكن أن أتحدث إليك دقيقة؟» أحسست، من نبرته، أنه لم يكن يراوغ للتهرب من النوم، وأنه يرغب في التحدث إلي حقيقة، وأن ذلك يتسم بالأهمية في نظره.

أجبت الطفل، بالنتيجة، قائلاً: «بالتأكيد. ما الذي تريد التحدث بشأنه يا كالفن؟».

«أصلي إلى الله كل ليلة، قبيل خلودي إلى النوم. أصلي إليه كي يساعدني على أن أكون صالحاً في اليوم المقبل. أعتقد، بالنتيجة، حين أغادر السرير

صبيحة اليوم المقبل، أن الله استجاب دعائي بالصلاح، لتقع المشكلات فيه، وأكتشف -من حيث لا أدري- أنني سيئ للغاية». توقف الطفل للحظة، وكأنه يفكر في شيء ما، ويتساءل عما إذا كان يجدر به قوله، ليعمد إلى سؤالي قائلاً: «هل تظن، إن واصلت الدعاء إلى الله، أنه سيجيب دعائي، وأني سأصبح صالحاً يوماً ما؟».

لم يعن ذلك، في نظري، رغبة كالفن في التعرض للعقاب كي يصبح صالحاً؛ بل دعوته المعالجين لإرساء الأرضية السليمة، وتطوير سبل الدعم، وتقديم ما يحتاج من العون كي يتمكن من تحقيق تلك الغاية.

يرغب كل من الأطفال المصابين باضطراب العناد الشارد -بحسب قناعاتي وخبرتي- في التحول إلى أشخاص صالحين، ولكن معاقبة الطفل المتمرد، وإرغامه على الامتثال عبر وسائل الإكراه الأخرى، تعمي الوالدين، والطفل يجد ذاته -كما هو محتمل- عن رؤية تلك الرغبة الدفينة. لا تستثار رغبة الطفل المتمرد بالصلاح إلا عند شعوره بالأمان العاطفي والجسدي في حضرة الوالد، واستمرار تقدير الأخير للطفل، فضلاً عن الإيمان به، والرغبة في مساعدته، بالرغم من كل ما يثيره من متاعب.

### العواقب المنطقية:

يكره الآباء التخلي عن المعاقبة أداة للتحكم في سلوك أطفالهم، بالنظر إلى اعتقادهم المتمثل في غياب الانضباط نتيجة غياب المعاقبة. بجانب ذلك الصواب في الحقيقة. يمكن أن تتوقف عن معاقبة طفلك لوجود ما يكفل تطبيق القواعد الثلاث الرئيسية بصورة أفضل من الطرائق، بما يسفر عن:

• تأديب الطفل بصورة أفضل.

• تعزيز علاقة الطفل بالوالد.

• تمكين الطفل وتعزيز قدراته بصورة أكبر.

تستند الطريقة الأفضل إلى مبدأ العواقب المنطقية.

ينص مبدأ العواقب المنطقية على «حرمان الطفل من الامتيازات حين يقوم بما يمكن أن يؤدي الآخرين، أو يضر بالملكات، أو يندر بنشر الفوضى في المنزل»<sup>(62)</sup>. لا يجب حرمان الطفل من الامتيازات، بكل الأحوال، كنوع من العقاب؛ بل بما يكفل منعه من إيذاء الناس، وتحطيم الأغراض، وحرمان الآخرين من حقهم في التمتع بالحياة داخل المنزل. يشعر الطفل، في كثير من الأحيان، بالاستياء من جراء فقدان امتيازاته، كما يحدث، على سبيل المثال، حين يدعو طفل في الثامنة صديقه إلى المنزل كي يلعبا معاً، ليتشاجرا عقب خمس عشرة دقيقة. تتمثل العاقبة المنطقية الأكثر وضوحاً، في تلك الحالة، في مغادرة الصديق إلى منزله، مما يشعر الطفل بالاستياء. يثير ذلك الأسف بالتأكيد، ولكن الصديق لم يؤخذ إلى منزله بغية إثارة استياء الطفل؛ بل منعاً لأذية أي منهما. ومن ثم إن اعتراض الطفل على العاقبة المنطقية، فسيكون من المناسب (بل الرائع، في الحقيقة) أن تخاطبه قائلاً: «تتمحور المسألة حول عدم أذية أي منكما. هل يمكنك التفكير فيما يكفل عدم شجاركما من الحلول الأخرى؟ إن أمكنك الخروج بحل ما، فسنقوم بتنفيذه».

يدرك الأطفال بصورة غريزية -كما أسلفنا سابقاً- أنه لا يجدر بهم إيقاع الأذى بالناس، وتحطيم الأغراض، والإضرار بالملكات. يمكن للأطفال أن يدركوا على حد سواء، مع قليل من التوضيح، أنه لا يسمح بحرمان الآخرين من حقهم في التمتع بالحياة داخل المنزل. لا يستثنى الأطفال المتمردون، فيما يتعلق بذلك الصدد، بحيث يدركون ويتقبلون حرمانهم من الامتيازات، من قبل الوالد، بغية تطبيق القواعد السابقة.

#### فكرة رئيسية:

يمكن أن يشعر الطفل بالاستياء الشديد حين تفرض العاقبة المنطقية، ويحرم من امتيازاته، ولكن المسألة لا تتمحور حول ذلك؛ بل ما يسهم به الحرمان من الامتيازات في حماية حقوق الآخرين أو استعدادها.

يصعب التمييز بين المعاقبة والعاقبة المنطقية، ولكن يمكن للمثال الآتي توضيح الفرق الدقيق بينهما. حل وقت الغداء في مدرسة وودرو ويلسون الابتدائية. طالب السيد بيرك؛ معلم الصف الرابع، تلاميذه بالاصطفاف عند باب الفصل. لم يستطع بول الانتظار، ليعمد

-بينما توقف زملاؤه عند الباب في انتظار إشارة السيد بيرك بالمغادرة- إلى التسلّل خارج الفصل. لم يرغب الطفل، ما إن بلغ الرواق، في أن يراه السيد بيرك، ليطلق العنان لساقيه، قارعاً أبواب الفصول الأخرى، بصورة عفوية، في طريقه إلى مقصف المدرسة.

كانت باستطاعة السيد بيرك، حين التقى بول في المقصف، أن يخاطبه قائلاً: «بول، سأحرّمك من الخروج إلى الفسحة بقية الأسبوع، لتسللك خارج الفصل، وجريك في الرواق». يمثّل الخروج إلى الفسحة امتيازاً للتلاميذ، ولكن حرمان بول من الخروج إلى الفسحة، نتيجة لجريه في الرواق، لا يجسد عاقبة منطقية؛ بل نوعاً من العقوبة، بالنظر إلى فرضها بغية إشعار الطفل بكثير من الاستياء، بحيث يحجم عن تكرار فعلته. لا يمثّل الحرمان من الخروج إلى الفسحة ما هو منطقي من العواقب، على حد سواء؛ لأن فقدان ذلك الامتياز لا يسهم بأي من الأشكال في حماية تلاميذ الصفوف الدنيا من الاصطدام ببول، حين يجري في الرواق في المرة المقبلة، فضلاً عن منع بول من إزعاج تلاميذ الفصول التي يقرع أبوابها، بينما يندفع إلى مقصف المدرسة.

من ثمّ عمد السيد بيرك إلى إيجاد عاقبة منطقية لسلوك بول، عوضاً عن معاقبته. خاطب المعلم الطفل قائلاً: «بول، أرى أنه يصعب عليك السير بتؤدّة، في الرواق، إلى مقصف المدرسة. وبالنسبة ستضطر في الغد إلى ملازمة مقعدك بينما يصطف زملاؤك عند باب الفصل (حرمان من امتياز). يمكنك فيما بعد، ما إن يغادروا الفصل، أن تسير برفقتي إلى المقصف» (الحفاظ على سلامة التلاميذ، ومن ثمّ، حقهم في الدراسة بهدوء).

### مساعدة الطفل على فهم السبب:

يوفر فرض العواقب المنطقية الفرصة لتعليم الطفل ما يتسم بالأهمية من المهارات الاجتماعية والمدرّكات، بما يعني، بكلمات أخرى، إمكانية استفادة الطفل من أخطائه. فلنعد للمثال السابق مجدداً، بغية توضيح ذلك. سأل المعلم بول، حين التقيا يوم الجمعة، قائلاً: «لِمَ تحظر المدرسة الجري في أروقتها، باعتقادك؟» عمد المعلم إلى سؤال الطفل لثقتة في أمرين: الأول، عدم تفكير بول بذلك السؤال من قبل. الثاني، امتلاكه القدرة على الإجابة عنه.

أجاب الطفل قائلاً: «لعدم رغبتها في تعرض أي من التلاميذ للأذى، كما يمكن أن يحدث، على سبيل المثال، إن خرج أي من تلاميذ الصف الأول الصغار من باب الفصل، واصطدم بي بينما أجري في الرواق. يسبب الجري في الرواق، إضافة إلى ذلك، كثيراً من الإزعاج للتلاميذ الآخرين حين يدرسون في فصولهم».

«هذا صحيح للغاية يا بول! تحظر المدرسة الجري في الأروقة لهذين السببين. علمت بقدرتك على الإجابة بالنظر إلى ما تتمتع به من ذكاء».

يتسم السيد بيرك، كما هو واضح، بقدر كبير من المهارة، ويدرك كيفية تطوير السلوك الاجتماعي لتلميذه المخطئ. يتمثل الحل لتطوير سلوك طفلك في عدم إخباره عن السبب وراء عدم صوابية سلوكه؛ بل سؤاله عنه. يستلزم تحقيق أمرين في سبيل ذلك:

1. إدراك طفلك أنك حاضر لمساعدته ودعمه، بما يناقض معاقبته.

2. سؤال طفلك ببساطة، كما فعل السيد بيرك، عند المرور بمثل ذلك الموقف، قائلاً: «لم... باعتقادك؟».

### مساعدة الطفل على تطوير خطة «ما يمكن فعله»:

يمكن استخدام العواقب المنطقية من تعليم الطفل ما يحتاج من مهارات لاستعادة امتيازاته الضائعة بصورة مؤقتة. ساعد المعلم بول - في المثال السابق مجدداً - على تطوير خطة بشأن «ما يمكن فعله»، عبر مخاطبته قائلاً: «بول، أعلم أنه يصعب عليك السير بتؤدة في الرواق. ومن ثم أود أن تفكر أثناء اليومين المقبلين، فيما يمكنك فعله للقيام بذلك. إن توصلت إلى أي من الأفكار، فسأستمع إليها يوم الجمعة. إن كانت جيدة، واعتقدنا بإمكانية نجاحها، فيمكن أن تعاود الانضمام إلى زملائك حين يتوجهون إلى المقصف. هل تود القيام بذلك؟».

رد الطفل قائلاً: «بالطبع»، فرحاً لعلمه بإمكانية استعادة امتيازته المتمثل في السير مع زملائه.

خاطب المعلم بول، حين التقيا يوم الجمعة، قائلاً: «حسناً يا بول، أخبرني بما توصلت إليه من أفكار بشأن السير في الرواق؟».

رد الطفل، بما يتسم بالجدية إلى أبعد الحدود، قائلاً: «لن أركض مرة أخرى. أعدك بذلك». عنى بول كل ما قاله بشأن عدم الجري في الرواق مجدداً، ولكن تعهده لا يمثل سوى خطة توقف عن الفعل السلبي. لا تتجح خطط التوقف<sup>(63)</sup>. لا تتجح تلك الخطط؛ لأن الأطفال نادراً ما يتعمدون القيام بالفعل السلبي. يصدر الأخير عن الأطفال المندفعين بصورة تلقائية، بالأحرى، نتيجة ما يتعرضون له من أحداث ومواقف متعددة في لحظات معينة.

#### فكرة رئيسية:

لا تتجح خطط التوقف

لم يجرب بول في الرواق بغية تعريض سلامة الأطفال الآخرين للخطر، ولم ينشد المتعة في إزعاج التلاميذ عبر قرع أبواب فصولهم. ركض الطفل في الرواق -على وجه الاحتمال- من جرّاء شعوره بالجوع، أو لجلوسه هادئاً في مقعد الدراسة ساعة من الزمن، بما لا يطيق احتمالاً، أو لأنه أطل برأسه من باب الفصل، ورأى أن بقية تلاميذ الشعبة الرابعة كانوا في طريقهم إلى المقصف بالفعل. جوبه الطفل بتلك العوامل مجتمعة في اللحظة ذاتها، وقد كان تأثيرها المشترك قوياً بما دفعه للخروج من باب الفصل بصورة عفوية. أدرك بول -ما إن أصبح خارج الفصل- أنه قام بالفعل الخاطئ، ولكنه أدرك ذلك عقب فوات الأوان، ليعمد إلى الجري في الرواق، آملاً في الوصول إلى المقصف دون أن يلحظ السيد بيرك غيابه.

يجهل معظم الأطفال المتمردين، كما بول، السبب وراء قيامهم بما هو غير مقبول من السلوك. وبالنتيجة يفتقد الأطفال القدرة على تعيين ما يحفزهم على ذلك السلوك من عوامل، مما يؤدي إلى سيطرتها عليهم.

ومن ثمّ يتمثل الحل في مساعدة الأطفال المتمردين على إدراك العوامل التي تدفعهم إلى القيام بما هو عفوي من التصرفات السلبية. قدم السيد بيرك العون لبول فيما يتعلق بذلك الصد.

#### فكرة رئيسية:

يجهل الأطفال ما يدفعهم للتصرف بطريقة غير مقبولة في بعض الأحيان.

سأل المعلم بول قائلاً: «من توقن بعجزه عن الجري في الرواق من زملائك؟».

- «تسهل الإجابة عن ذلك السؤال. هو نيل بالتأكيد؛ لأنه بدين للغاية بحيث يعجز عن الجري».

- «أجل، لا يمكن لنيل الحركة سريعاً. ما طبيعة العلاقة بينكما؟».

- «جيدة».

- «كم تَمَّ إن اخترت أحد التلاميذ للوقوف أمامك على الدوام في الرتل، قبل التوجه إلى المقصف، فهل يمكن أن يكون نيل؟».

- «نعم، يروق لي».

- «لحظت، أثناء وجودك في الرتل، أن يديك وذراعيك تتحرك باستمرار. يخيل إلي أنها تحفز ساقيك للتحرك على حد سواء، مما يدفعك للجري في الرواق. أتساءل، من تَمَّ، عما يمكن أن تفعله لتثبيت ذراعيك».

أجاب الطفل، بما يتسم بكثير من الحيرة، قائلاً: «لا تتبادر إلى ذهني أي من الأفكار».

عقب المعلم قائلاً: «قف أمامي مباشرة، ثم انظر إلى سروالك. ما أقرب الأجزاء فيه إلى يديك؟».

- «جيباي؟».

- «أجل!، تقع يداك إلى جانبهما مباشرة. ضع يديك في جيبيك، وحاول أن تحرك ذراعيك».

عقب الطفل قائلاً: «أعجز عن تحريكهما».

- «هل يمنحك ذلك أيأ من الأفكار؟».

سأل الطفل قائلاً: «هل تعني أن أضع يدي في جيبي؟».

- «هل يكفل ذلك منع ذراعيك من الحركة؟».

أجاب الطفل بالإيجاب، بما يتسم بالدهشة لنجاح تلك الفكرة البسيطة.

- «حسناً، اعتقد بامتلاكك خطة الآن. فلنقم بمراجعتها. من ستقف خلفه في الرتل، حين يحين موعد الغداء؟».

- «نيل».

- «وستقف خلفه على الدوام، أليس كذلك؟».

أجاب الطفل بالإيجاب، مبتسماً؛ لأن خطته تتماسك شيئاً فشيئاً.

- «وأين ستضع يديك؟».

- «في جيبِي».

- «هل تعتقد أنه يجدر بنا تجريب هذه الخطة؟».

- «أجل».

- «حسناً، سنفعل ذلك. أود أن تدون الخطوات السابقة التي ستقوم باتخاذها لتسير في الرواق بتؤدة، عوضاً عن الجري. أطلعني على تلك الخطوات حين تقوم بكتابتها. سنقوم بتوقيعها معاً، لنعمد إلى تجريبها على الفور. يمكن أن نبدأ في الظهيرة إن أصبحنا جاهزين».

وقرّ فرض العقاب المنطقية الفرصة للمعلم لمساعدة بول على إدراك السبب في سلبية الجري في رواق المدرسة. مكّنت العقاب المنطقية السيد بيرك، على حد سواء، من مساعدة بول على تطوير خطة «ما يمكن فعله»، بغية إيجاد الظروف الجديدة التي ستمكّنه من البقاء في الرتل، قبل التوجه إلى المقصف، ومغالبة العوامل التي تدفعه للجري في الرواق. تتسم العقاب المنطقية بميزة إضافية هائلة، تتمثل فيما توفر للمعلم من فرص متعددة لدعم الطفل، حين ساعده على تطوير خطة لاستعادة امتيازه المتمثل في السير برفقة زملائه، مما يسهم في تعزيز العلاقة بين المعلم والطفل.

إيجاد العواقب المنطقية المناسبة:

يصعب إيجاد العواقب المنطقية المناسبة، في بعض الأحيان. يمكن للنقاط الآتية المساعدة

بذلك الصدد:

● تتمثل العقاب المنطقية في الحرمان من الامتياز، لا المعاقبة الشديدة.

• يجدر بالحرمان من الامتياز أن يسهم في حماية الأشخاص، والممتلكات، والحقوق الأساسية.

• يستعيد الطفل امتيازه الضائع حين يساعد الوالد الطفل على تطوير خطة بشأن «ما يمكن فعله».

لجأت إحدى الأمهات، في مجموعتنا التدريبية، إلى تلك النقاط الثلاث لإيجاد ما هو مناسب من العواقب المنطقية للتعامل مع سلوك طفلتها المتسم بالخطورة. تمثلت المشكلة في تسلل الطفلة -البالغة خمسة أعوام- من المنزل في غفلة من أمها. كان الأمر يحدث على النحو الآتي: تعود الطفلة سارة من الحضانة في الظهيرة، لتتناول الغداء، وتلهو ما يقارب الساعة. بينما تتجزأ الأم، ميليندا، عملها المكتبي بوساطة الحاسوب. كان من المفترض بالطفلة أن تلهو في المنزل، ولكنها لم تكن تفعل في بعض الأحيان، لتتسلل خارج المنزل، وتهيم في الشارع، وتعتمد إلى اللحاق بما يمكن أن يلفت انتباهها. لحظت ميليندا، ذات يوم، أن السكون يعم المنزل، لتعمد إلى مناداة ابنتها، دون أن تتلقى أيًا من الردود. ومن ثمّ اكتشفت الأم اختفاء الطفلة لتفقد صوابها، وتهرع للبحث عنها، قبل أن تجدها في نهاية الشارع، تحاول الاقتراب من كلب كبير مقيد إلى سلسلة.

عرّض الخروج إلى الشارع الطفلة إلى الخطر بالتأكيد، مما يستلزم إيجاد العواقب المنطقية المناسبة. كانت الطفلة بحاجة لخسارة أحد امتيازاتها، كي لا تواصل الخروج إلى الشارع، وتعرض حياتها للخطر. قررت الأم أن العاقبة المنطقية المناسبة تتمثل في حرمان سارة من الامتياز المتمثل في ارتداء حذائها داخل المنزل. ومن ثمّ عمدت الأم إلى وضع حذاء الطفلة، عقب عودتها من الحضانة كل يوم، في الرف الأعلى من خزانة غرفة النوم. نجحت خطة الأم، بالنتيجة، لعجز سارة عن الخروج إلى الشارع حافية القدمين.

يجسد التعويض ما هو منطقي من العواقب على حد سواء. إن أوقع الطفل الضرر بأى من الممتلكات، فيجدر به -على أقل تقدير- أن يدفع المال للتعويض عنه بما يناسب قدرته. إن حطم الطفل نظارة والده، على سبيل المثال، فيجدر به الإسهام جزئياً -على أقل تقدير- في ابتياع نظارة جديدة، أو القيام بمزيد من العمل في المنزل لمدة من الزمن، على الأرجح، إن افتقر إلى المال الكافي.

## أمثلة أخرى :

يصعب التمييز، في بادئ الأمر، بين العقاب والعاقبة المنطقية المناسبة، بما يمكن من إيجاد الأخيرة. يمكن أن تساعد الأمثلة الآتية في ذلك:

السلوك	العاقبة المناسبة
رمي الطعام على المائدة	تناول الطعام على مائدة منفصلة، في غرفة أخرى.
كسر إطار اللوحة	أداء مهام إضافية للإسهام في ابتياع إطار جديد.
الشجار مع صديق عقب ساعة من اللعب	تقصير مدة اللعب إلى 30 دقيقة.

## استعادة الامتياز الضائع:

تتميز العاقبة المنطقية عن المعاقبة في جانب مهم آخر، يتمثل في تمكين الوالد والطفل من العمل معاً لإيجاد طريقة لاستعادة الامتياز الضائع، عبر تعليم الطفل ما هو جديد من المهارات.

تسهم مساعدة الطفل على استعادة امتيازه الضائع في تحقيق ثلاث من الغايات: أولاً، منحه ما يكفي من الدوافع لتعلم المهارات الجديدة، بما يعزز -في كثير من الأحيان- من نضجه الاجتماعي. ثانياً، توفير عديد الفرص لتقدير الطفل وإطرائه، بينما يشارك في «جلسة التفكير» لاستعادة امتيازه الضائع. ثالثاً، تعزيز العلاقة الحساسة مع الطفل، عبر مساعدته على استعادة امتيازه الضائع.

## خاتمة:

يتعين على الوالدين وضع القواعد لأطفالهم، ودفعهم إلى الالتزام بها. إن لم يعتمد الطفل إلى الالتزام بأي من تلك القواعد، فلا بد من إيجاد العواقب المناسبة. تتجسد

أبسط العواقب، وأكثرها تقليدية، في معاقبة الطفل بشدة، بحيث يمتنع عن تكرار فعلته. لا تتمحور التربية، بكل الأحوال، حول السيطرة على الطفل؛ بل تعليمه ما يحتاج من المهارات في مختلف المناحي، بما يشمل السلوكية منها. ومن ثمَّ يجدر بالوالدين التخلي عن المعاقبة، واللجوء إلى العواقب المنطقية، التي تمكن الوالدين من إيجاد العواقب لما هو غير مقبول من السلوك، وتعليم الطفل - في الوقت ذاته - كيفية التصرف بطريقة ملائمة.

\*\*\*\*\*

## تطبيقات

1. ماذا يظهر طفلك - بصورة متكررة - من أنماط السلوك غير المقبولة في نظرك؟ وكيف تستجيب لها في العادة؟

السلوك	الاستجابة المعتادة
_____	_____ التجاهل _____ الوقت المستقطع _____ قول: «توقف عن ذلك». الضرب على المؤخرة
_____	_____ التجاهل _____ الوقت المستقطع _____ قول: «توقف عن ذلك». الضرب على المؤخرة
_____	_____ التجاهل _____ الوقت المستقطع _____ قول: «توقف عن ذلك». الضرب على المؤخرة

2. عيّن، من القائمة السابقة، ما يمكن أن يؤدي الناس، من أنماط السلوك، أو يضر بالملكات، أو ينتقص من حقوق الآخرين.

\_\_\_\_\_

3. تحتاج أنماط السلوك السابقة إلى ما هو منطقي من العواقب. ما يمكن أن يمثل عواقب منطقية مناسبة لتلك الأنماط من السلوك؟

السلوك	العاقبة المنطقية
_____	_____
_____	_____
_____	_____

4. أوجد الوقت للتحدث إلى طفلك بشأن أي من أنماط السلوك الواردة في التمرين الثالث. اعمل، عبر توجيه الأسئلة، على مساعدته في إدراك السبب الكامن في رفض تلك الأنماط من قبلك. اشرح للطفل، فيما بعد، ما يمكن أن ينتج من عواقب منطقية (الحرمان من الامتيازات) عند ملاحظة أنماط السلوك تلك.

5. إن أظهر طفلك من أنماط السلوك - بصورة متكررة - ما يمكن أن يؤذي الناس، أو يضر بالملكات، فيمكن أن يعزى ذلك إلى افتقاره إلى المهارات، والقيم، والمدرجات الضرورية. فكر في الكيفية التي ستساعد بها طفلك على امتلاك تلك المهارات، والقيم، والمدرجات. تفهم، من فضلك، أن عملية التعلم تلك يمكن أن تستلزم الوقت. يمكن أن تمر بضعة أشهر حتى يمتلك الطفل المهارات المطلوبة، أو يبلغ مستوى الإدراك الضروري. ومن ثمّ يجدر بك نظراً إلى شمولية تلك المهمة، وما تستلزمه من وقت، أن تعين أكثر أنماط سلوك الطفل إزعاجاً، وأن تبدأ في العمل على معالجتها.

### النشاط التعليمي

### السلوك

_____	_____
_____	_____
_____	_____

